

الفصل الخامس عشر

خونكار اسكله سى

قبل أن توقع معاهدة كوتاهية بعدة أسابيع أمر صاحب الجلالة الإمبراطورية قيصر الروس الكونت أرلوف Count Orloff أن يسرع إلى الآستانة . وقد أوفده إليها في مهمة خاصة ، يدل على مداها اللقب الذى لقب به وهو « السفير فوق العادة والقائد العام للقوات الروسية فى الإمبراطورية العثمانية »^(١) .

ودخل السفير العاصمة العثمانية باحتفال مهيب فى اليوم السادس من شهر مايو سنة ١٨٣٣ . ولم يقلل من جلال الاحتفال وهيبته أن محموداً ومحمداً عليهما كانا قد سويا ما بينهما من النزاع ، بل ربما زادته هذه التسوية فى الحقيقة جلالاً فوق جلاله .

ولم يكن الباعث على هذا التباهى هو الغرور وحب المظاهر ، بل كان هذا الجنون يسير على نظام مرسوم وخطة مقررة . ولما عرف الكونت أرلوف بأن معاهدة الصلح قد وقعت بحث عن حجة يتذرع بها لتبرير مجيئه إلى الآستانة ، فأعلن من فوره أن مقامه على شواطئ البسفور ليس إلا دليلاً محسوساً على الوفاق التام السائد بين السلطان وقيصر روسيا^(٢) . ثم أطل المكث ليمهد السبيل إلى جلاء القوات الإمبراطورية عن الآستانة . وأثار وجوده غيظ روسن الشكس الغضوب ، كما أن بنسنبي Ponsonby الهادى الرزين عاق عليه فى رسائله التى

(١) المسألة المصرية تأليف السيود فرينيه طبع كلمان ليقي يباريس ص ٢٧ .

(٢) المصدر عينه فى نفس الموضع .

بعث بها إلى لندن . ولم يلبث الرجال أن أدركا حقيقة ما ينطوى عليه كل هذا الدهاء الروسى من معان ، إذ عرفا أن معاهدة وقعت فى اليوم الثامن من شهر يولييه سنة ١٨٣٣ بين أرلوف والرئيس أفندى جاء فى المادة الثالثة منها ما يأتى :

« لما كان جلاله إمبراطور الروس جميعاً يرغب رغبة صادقة فى المحافظة على استقلال الدولة العثمانية التام ، إذا ما أجبرت الظروف الباب العالى على طلب المعونة الأدبية والمساعدة الحربية من روسيا — وإن كان هذا الاحتمال بحمد الله غير متوقع — فإن جلاله الإمبراطور يتعهد بتقديم القوات البرية والبحرية التى يرى الطرفان المتعاقدان وجوب إرسالها » .

وكانت هناك مادة سرية ملحقة بهذا الاتفاق تحتم على تركيا أن تغفل مضيق الدردنيل فى وجه سفن جميع الدول ، إذا اشتبكت روسيا فى حرب خارجية . ولما وصل نبأ هذا الاتفاق إلى مسامع روسن ثارت ثائرتة . ويقول لنا المسيو ده فريسنيه M. de Freycinet وهو الذى كان على رأس الوزارة الفرنسية حينما احتلت إنجلترا مصر فى عام ١٨٨٢ : « إنه رغب فى أن يبلغ الباب العالى أنه إذا تمسك بشروط المعاهدة ، فإن عمله هذا يثير عداء فرنسا لا محالة . لكن السفير البريطانى اللورد بنسنبي أبى أن يسلك هذا المسلك رغم مشاركته روسن فى شعوره »^(١) .

ولسنا نريد أن نطيل القول فى هذا الموضوع لأن إبراهيم لم يشترك فى المباحثات التى استتبعها هذا الاتفاق ؛ وإنما نريد أن نقول إن هذه المعاهدة هى التى أشار إليها اللورد بنسنبي فى خطابه السرى إلى الكولونل كامبل ، وهو الخطاب الذى اقتبسنا منه فى آخر الفصل السابق . وعلى أثر هذه المعاهدة ازداد

تدخل روسيا في بلاد الشام ، وهو التدخل الذى كشف أمره السفير البريطانى في مذكرته السالفة الذكر ؛ ونشطت فيها الدسائس ، وأخذ الرسل يحرضون المسلمين والأرثوذكس المسيحيين على الثورة . ولم يعن رسل القيصر بطبيعة الحال بدس الدسائس بين المسلمين ، بل تركوا ذلك للأتراك . ولنفصل أسباب هذه الثورة فنقول :

ذكرنا من قبل أن القنصل البريطانى العام بالإسكندرية أبلغ في ١٥ إبريل سنة ١٨٣٣ أنه « لا يوجد في الوقت الحاضر سبب صحيح للشكوى من الحكومة القائمة في بلاد الشام » . وذكرنا أيضاً أن المبدأ الذى سار عليه إبراهيم في حكمه هو مبدأ المساواة الدينية بين جميع السكان . وقد رأى عمال القيصر والساخطون من الأتراك في هذه الحرية الفكرية أنجع وسيلة لإثارة نفع الفتنة في تلك البلاد . فأما سبب اعتراض الرجعيين من المسلمين على حرية إبراهيم الدينية فأمر بديهي لا يحتاج إلى شرح أو إيضاح . ذلك بأن في هذه الحرية قضاء لامرد له على تعصبهم وآرائهم الرجعية . وأما سبب استياء إحدى الطوائف المسيحية من هذه الحرية فليس واضحاً بل هو في حاجة إلى الشرح والبيان .

من مبادئ الإسلام الأساسية ، الذى هو من أكثر الأديان حرية من وجوه عدة ، أنه لا يسوى بين الناس جميعاً من الوجهة الدينية ، بل يقسمهم طائفتين إحداهما أحب إلى الله من الأخرى . فأما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله فهم أحب الناس إلى الله ، وأما الطائفة الثانية فتقسم قسمين : الكتابيين وهم المسيحيون واليهود ، وغير الكتابيين وهم أقل الناس درجات عند الله . وقد قال الله في هذه الطائفة الأخيرة :

يَأْتِيهَا الشَّيْ جُهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ
جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ^(١)

ومعنى هذه الآية واضح . وقال فيهم أيضاً :

« وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ »^(٢)

أما الكتّابيون فيقول الله فيهم :

« قَتِّلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ »^(٣)
ويقول أيضاً :

« فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »^(٤)

والحقيقة التي نتبينها من هاتين الآيتين الأخيرتين من آيات القرآن الكريم
أن الإسلام وهو دين الحرية والرقى يقرر في عام ٦٢٣ أن الذين أوتوا الكتاب
يستطيعون أن يبقوا على دينهم بشرط أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . في
حين أن الذي قرره العالم المسيحي في معاهدة أوجزبرج Augsburg التي عقدت
في عام ١٥٥٥ عند انتهاء حرب السنين الثلاثين ، هو أن يكون للدولة الحق المطابق
في تعيين دين رعاياها ؛ ولم يخفف من وطأة هذه الساطة إلا سماح الدولة أن

(١) التوبة : ٧٢ .

(٢) الأنفال : ٣٨ .

(٣) التوبة : ٢٨ .

(٤) التوبة : ٣ .

لا يقبلون هذا الشرط بأن يغادروا بلادهم^(١) .

وكانت نتيجة تسامح الإسلام أن المسيحيين واليهود لم يمسهم أذى ، ولم تهدم كنائسهم أو معابدهم ؛ وكل الذى فرض عليهم أن يدفعوا الجزية وهم صاغرون . وقد استفاد هؤلاء من صغارهم ، فأثروا لوداعتهم ؛ وكان ذلك مصداقا لما جاء فى الإنجيل « طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض »^(٢) ، ولا يظن القارىء أن فى هذا شيئا من المبالغة ، ولا يشك فى أنه هو الحق بعينه . ذلك بأن « المؤمنين » لم يسمحوا لأهل الكتاب بأن يحملوا السلاح ، بل أعفوا من الخدمة العسكرية ، فأقام هؤلاء فى ديارهم يرعون أنعامهم ، ويهتمون بشؤونهم ، ويمارسون شعائر دينهم ، حيث كان يمارسها آباؤهم وأجدادهم .

وبذلك أضحي المؤمنون فى الشرق هم الطبقة الحاربة ، وأضحى غير المؤمنين يسكرون وراء الصفوف يجنون من الحرب الأرباح الطائلة ، ويجمعون المال الكثير ، ولا يؤدون إلى الدولة إلا النزر اليسير من هذه الأرباح ، على هيئة جزية خاصة . فلما فرض إبراهيم مبدأ المساواة فى الدين والمساواة أمام القانون ، وأعفى أهل الكتاب بذلك من هذه الضرائب الخاصة ، كان لابد أن يطالبوا بالخدمة العسكرية فيما بعد .

ولم يكن فى هذا التغيير ما يخشاه المسيحيون أو اليهود ، فقد كان فى القانون منافذ تنجيهم من التجنيد ؛ وكان فى وسعهم أن يبتاعوا هذا الإعفاء بالمال ، وإنما الذى ساءهم وحز فى نفوسهم ، هو أن المساواة لابد أن يعقبها فى العاجل أو فى الآجل القضاء على احتكارهم للتجارة ؛ فكانتهم والحالة هذه رضوا بأن

(١) محاضرات فى التاريخ الحديث لجون إمرك إدورد دابرج أكتن بارون أكتن

الأول طبعه مكملان بلندن سنة ١٩٢٠ ص ١٢٧ .

(٢) متى ٥ : ٥

يعفوا من الضرائب الخاصة ، بل سرهم هذا الإعفاء ، ولكنهم لم يرضوا بما يقابلهم من الواجبات . وذلك لأنهم ظلوا اثني عشر قرناً يجنون في أثناء الحروب طائل الأرباح ؛ فلما رأوا حقوقهم المكتسبة تتعارض مع مبادئ العدالة والإنصاف التي نشرها إبراهيم في البلاد ، ساءهم ذلك كثيراً .

وكان الموقف الذي وقفته أوروبا من هذه المسألة مجمعاً كل الإجحاف بإبراهيم . ولسنا نريد أن ندخل في روع القارئ أن الغرب قد وقف هذا الموقف الظالم عن قصد وعمد ، بل الذي نقوله ونصر عليه أنه كان موقفاً ظالماً بالفعل ، وإن كان قد أعجب بمبدأ المساواة أمام القانون . وقد حدد اللورد بالمستون هذا الموقف بتصريحه الذي قال فيه :

« لأوروبا الحق في أن ترجو أن يعنى رعايا الباب العالي المسيحيون ، الذين وضعهم السطان مؤقتاً تحت حكم محمد علي ، من نظام التجنيد الجديد ، الذي يرى الباشا من حقه أن يثقل به كاهل السكان المسلمين ، بعد أن وكل إليه النظر في مصالحهم والعمل لخيرهم » .

ومعنى هذا أن وزير الخارجية البريطانية لم يكن يعارض في التجنيد من حيث المبدأ ؛ ويلوح أنه لم ير عيباً في إعلان المساواة أمام القانون ؛ وكل الذي يبدو لنا أنه يرغب فيه هو أن يسمح للمسيحيين أن يجنوا الخير ويستمتعوا به ، وهذا بعينه هو ما سمح لهم به إبراهيم . والدليل على ذلك ما أجاب به الكولونيل كامبل القنصل العام في الإسكندرية عن الانتقادات التي احتواها تصريح اللورد بالمستون إذ قال إنه :

« طاف منذ زمن قريب في بلاد الشام ، فرأى فيها الحجاج وقد نقش الصليب على ذراعهم ، وأخبروه أنهم لم يجروا على هذه العادة ليمتازوا عن

المسلمين فحسب ، بل ليطمئنوا أيضاً إلى أنهم لا يدعون إلى الخدمة العسكرية الإلزامية «^(١) .

وأثرى كثير من السوريين المسيحيين في أيام العهد البائد ، حين كانوا يعطون الجزية وهم صاغرون ، فرأوا من مصلحتهم والحالة هذه أن يوجهوا قوارص أسلحتهم إلى إبراهيم . وأنت إذا اعتديت على قدسية الاحتكار ، وانتهكت حرمة الحقوق المكتسبة ، واجترأت على معاقلة الامتيازات التي تتمتع بها الطبقات ، إذا فعلت ذلك فقد سميت إلى حتفك بظلفك . ولذلك لم يمض إلا القليل من الزمن حتى وقع ما كان لا بد من وقوعه ، فاستحال الاستياء قلقاً ، والقلق ثورة ؛ فخرج الأرثوذكس على إبراهيم ، ولكن خروجهم هذا كان من أكبر الأسباب التي دعت إلى انضمام الكاثوليك أو الموارنة السوريين إلى جانبه . وكان مثاهم في ذلك مثل الإيرلنديين ، فإن الروح التي تدفع أهل الأستر والكاثوليك الإيرلنديين إلى أن يعارض كلا الفريقين الفريق الآخر في كل مسألة تعرض لها ، ولا يتفقون إلا فيما جبلوا عليه من حب القتال ، هذه الروح هي نفسها التي دفعت الطائفتين السوريتين المسيحيتين إلى أن تقف كلتاها من الأخرى موقف العداء . ولما كان الدروز هم أعداء الموارنة على الدوام فقد انضموا بطبيعة الحال إلى أعداء إبراهيم .

وكان عداء الدروز من أوحش العواقب التي ترتبت على معاونة المارونيين للحكومة الجديدة . ونحن نعتقد أن إبراهيم قد تنبأ بهذه النتيجة ووطن نفسه عليها ، لأنها نتيجة محتومة ؛ ولكن الذي لم يقدره أن عداء الدروز قد ضم إلى معسكر أعدائه السيدة هستر لوسى استانهوب Lady Hester Lucy Stanhope^(٢) ،

(١) ددول في كتابه السائف الذكر ص ١٥٩ .

(٢) هي الابنة الكبرى لنتشاراس استانهوب (إرل استانهوب الثالث) وأميها السيدة =

ابنة أخت وليم بت William Pitt ، وحفيدة لورد تشاتام الأول Lord Chatham . وكانت هذه السيدة من أعظم النساء وأجلهن قدراً ، كانت تجلس في صدر مائدة بت ، وتحب ضيوفه ، وتزين مجالسه بجماها البارع ، وتشرح الصدور بقريحتها الوقادة وبديهتها السريعة . ولما مات خالها سكنت في ميدان منتاجيو Mantague Square بلندن ، ولكنها لم تطق الحياة في إنجلترا دون أن تتمتع بلذة الاختلاط بكبار الساسة من حزب المحافظين . ولما ضاقت ذراعاً بهذه الحياة المملة فرت منها إلى معاقل ويلز Wales ، وأخذت بعد ذلك تنقل في أقطار العالم ، حتى استهوتها بلاد الشرق الأدنى ، فألقت عصي التسيار بين دروز جبال لبنان .

وصار لها في موطنها الجديد سلطة تكاد تكون مطلقة من كل قيد ، وأصبح حكمها مطاعاً ، وكلتها نافذة في جميع الجهات المجاورة لهذه البلاد ؛ ورجاها إبراهيم أن تقف على الحياد ، ولكن الحياد لم يكن من شيمتها ، بل كانت تؤمن بحكمة الإنجيل « من ليس معي فهو على »^(١) فأضحت لذلك من أشد الناس طعنًا على الحكم للمصري . وكان اطعنها هذا أثر عظيم ، لأن اسمها وخلقتها كانا يزيدان أقوالها قوة على قوتها ، ولأنها لم تكن تعرف « للتراضي » معنى . وكان إخلاصها الشديد ونبيل عواطفها لا يعادلها في الشدة إلا تطرفها في تشيعها .

وقد اطعنا في ملفات القنصلية البريطانية العامة على شكوى عليها توقيع رجلين من أهل الشام ؛ يظهر من اسميهما أنهما من أصل ماروني ، وإن كنا لا نجزم بصحة هذا الاستنتاج . ولما كانت هذه الوثيقة هي مثال من الوثائق

== هستر أخت وليم بت الشهير ، ولدت في سنة ١٧٧٦ وتوفيت في سنة ١٨٣٩ . وهذا الوصف الذي وصفها به المؤلف مأخوذ بنصه من دائرة المعارف البريطانية . (المعرب)
(١) متى ١٢ : ٣٠ ، لوقا ١١ : ٢٣ . (المعرب)

التي يكتبها أهل البلاد الواقعة في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وكانت فوق ذلك مما يميظ اللثام عن خفايا سياسة ذلك الوقت ، فقد آثرنا أن ننقل بعض ما جاء فيها . والشكوى مكتوبة باللغة الإنجليزية وعليها توقيع « جبريل وفرانسس حمصى » ، وقد جاء فيها :

« نحن الموقعين على هذا نقدم ماتمسنا في خضوع إلى سموكم ، لتعرض عليكم أننا قد أقرضنا السيدة إستر استانهوب (كذا) Esther Stanhope ، من رعايا بريطانيا ومقيمة في سوريا بجوار صيدا ، مبلغ خمسة آلاف وثلثمائة ريال نقداً على أن ترد هذا المبلغ كمبيالات في خلال ثلاثة شهور . وكل ذلك ثابت من صك بخطها تحت يد مقدمى هذا الملتمس . وقد مرت عليهما تسع سنين من غير أن ينالا من السيدة إستر شيئاً غير الوعود الجوفاء ولهذا فهما يركعان بين يدي سموكم ، يلتمسان من عدالتكم أن تطلبوا إلى البعثة البريطانية في هذا القطر أن تفحص المسألة ، حتى إذا تبين صدق أقوالنا هذه اتخذت ما يلزم من الإجراءات لإرغام السيدة إستر على أداء المبلغ السالف الذكر » ^(١) .

لم يكن في أخلاق محمد على ولا في أخلاق إبراهيم شيء من الضعة والصغار ، بل كانا من الصنف الذي يسميه الفرنسيون « السادة العظماء » Grands Seigneurs . لكن هذا المعروض هو من نوع المعروضات التي يلذ للمرايين السوريين أن يتقدموا بها إلى كل حكومة تلى الأمر ، يرجون بها أن ينالوا الخطوة لديها . ولما نعرف ما انتهى إليه أمره ، ولكننا نعلم علم اليقين أن دائرة المعارف البريطانية تقول إن السيدة هستر استانهوب كانت ذات مواهب عظيمة تمكنها من حسن

(١) صور سجلات الوثائق الدبلوماسية الخاصة بشؤون مصر في سنة ١٨٣٤ بدار

الكتب المصرية بالقاهرة وثيقة رقم ٧٩ .

القيام على الأعمال ؛ وإنها أصبحت كاتمة أسرار Pitt الخصوصية بعد أن اعتزل منصبه ، وإن البرلمان قرر لها معاشاً قدره ١٢٠٠ جنيه في العام مدى الحياة . ومن هذا يرى أنها كان لديها ما يكفيها ؛ وإذا كانت لها فوق ذلك « مواهب عظيمة تمكنها من حسن القيام على الأعمال » ، فإنها لم تكن في حاجة إلى الاقتراض .

ولنترك هذه المسألة الآن لنقول إن ددول Dodwell ، مؤلف كتاب « منشئ مصر الحديثة » يقص علينا أن جماعة من عمال الأتراك استطاعوا أن يستفروا السوربين المسلمين لمقاومة إبراهيم . ولأسنا نعجب لقوله هذا ، فإن في كل دين طائفة من المتحمسين المتعصبين يحيون حياة بريئة من المذام ، قلوبهم عامرة بالإخلاص لدينهم ، ولا يفرطون في شيء من عقائدهم ؛ ولكن عقولهم أضيق من أن تتسع لآراء غيرهم . لقد كان سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) أوسع الناس عقلاً ، ولكن بين أتباعه أناساً ، هم مثال الطهارة والصلاح ، غير أنهم لا يرون الخير إلا فيما يعتقدون ، ويغفلون عما في آراء جيرانهم من صواب . وكان في الشام نفر من هؤلاء ، قام واحد منهم وصعد إلى مأذنة في مسجد نابلس ظهر يوم من أيام الجمعة من عام ١٨٣٤ ميلادية ، وصاح بأعلى صوته قائلاً : « لقد درست معالم الإسلام ومحى من الوجود ، ألا يجري في عروقنا الدم التركي ؟ ليقم كل رجل يحب النبي إلى سلاحه فيقتله ، وليذهب لقتال هذا الرجل الذي لا إيمان له ، هذا الجاور^(١) إبراهيم باشا ، هذا السكير الذي يدمن شرب الخمر والتبذ ، والذي يأكل لحم الخنزير وكل ما يخرج من البحر من أقدار كما يفعل المسيحيون (يشير إلى ما اعتاده إبراهيم من أكل الحيوانات البحرية) ، والذي يسكن الأديرة مع القس ،

(١) كلمة تركية معناها « الكافر » .

(العرب)

و يصلى معهم ولا يذهب إلى المساجد قط»^(١).

لم نجد قط دليلاً يثبت أن إبراهيم كان يأكل لحم الخنزير ، ولهذا نشك في أنه كان يأكل أى نوع من أنواعه أو أنه كان يوضع على مائدته ؛ وأما التهمة الأخرى تهمة إدمان الخمر فهي أيضاً تهمة لم يقم عليها الدليل .

فلما وقف المسيحيون في وجه إبراهيم لأسباب تتعلق بهم وحدهم ، وعاداه أيضاً المسلمون ، تخرجت الأمور وتهيأت أسباب الحرب العوان . ولم يكن إبراهيم ليعجزه أن يقطع دابر الفتنة في المدن الكبرى ، ولكنه أوتى من أصالة الرأي وحسن السياسة ما جعله يعمل أولاً لاتقاء الخطر المحدق به بسبب وجود مرسي لدعائم الاضطراب في حلب على مقربة من جبال طوروس . ولذلك اتفق مع أحد رؤساء العشائر على أن يقوم بمهمة حفظ النظام في ذلك الإقليم ، ثم عقد محادثات أخرى مع غيره من الرؤساء . وأخيراً نجح ، بعد أن لاقى قليلاً من الصعاب ، في نشر لواء القانون في البلاد . لكن السلطان كان لا يتركه يعمل على إثارة الفتنة ، ولذلك لم يلبث القلق الذي كان سائداً في الداخل أن تحول إلى حرب خارجية شغلت بال إبراهيم وملكته عليه جميع تفكيره .

وحاول محمود في مايو سنة ١٨٣٤ أن يستعين بثورة الشام على استعادة ما فقده من الأملاك^(٢) . وكان رشيد باشا الصدر الأعظم ، وهو القائد التركي الذي أسره إبراهيم في موقعة قونية ، مقيماً وقتئذ في سيواس عند الحدود التركية المصرية الجديدة ، بحجة أن القلق الذي كان سائداً في بلاد الأكراد منذ زمن بعيد يستلزم وجوده هناك . وظن السلطان أن اضطراب الأمور في الشام يهيئ له أحسن

(١) ددول في كتابه السالف الذكر ص ١٥٦ .

(٢) قطاوى في كتابه السالف الذكر جزء ٢ ص ١٣٠ .

الفرص للزحف بذلك الجيش على البلاد التي تخلى عنها محمد علي . لكن بنسني وروسن كان لا يعزب عنهما أنه إذا أقدم السلطان على هذا الأمر ، فإن إبراهيم لن يكتفى بالقضاء على الجيش العثماني بل سيرحف أيضاً على الآستانة ، ولذلك استخدمنا نفوذهما لدى الباب العالي ليحتفظا لتركيا بمدينة القياصرة . ولم يكن سبب هذا التدخل بفضهما إبراهيم بل رغبتهما في بقاء الآستانة في يد الأتراك .

وقد أهاج هائج محمد علي موقف محمود العدائي ، وانتصار الدول له ؛ فشرح الأمر لإبراهيم في خطاب كتبه إليه بتاريخ ٢٤ أغسطس سنة ١٨٣٤ ، بسط فيه الموقف كله ، وأشار إلى سعي السلطان المعجل لإيقاد نار حرب جديدة ، وختمه بقوله : « ونرجو أن تتمكن من إقناع أوربا بغدر الباب العالي وتحرشه ، فستطيع بذلك أن نمحط أغلال الذل التي تطوق أعناقنا »^(١) .

وقد كتب محمد علي خطابه بهذه الالهجة ، لأن بطانته اشتد عداؤها لشروط معاهدة كوتاهية . نعم إن أحدا لم يجرؤ على انتقاد الباشا ، لأن حاشية الملوك في تلك الأيام لم تكن ترى أن الجهر أمام الأمير الشرقي بأنه ارتكب خطأ ظاهراً مما يطيل أعمار رجالها ؛ ولكن الناس لا يعدمون مثات من الوسائل لإبلاغ رسائلهم إلى من يريدون إبلاغها إليه ، من غير أن يكتبوها على القرطاس . ولذلك أخذ من حوله يمتدحون نباه ومروءته ، ويعظمون الشهامة التي أظهرها حين تخلى عن ثمار نصره ؛ وقالوا له مرارا إن محمودا يجب عليه أن يحمده لمصر نزولها باختيارها عن استقلالها الذي كان منها قاب قوسين أو أدنى^(٢) .

وإذا كان لا بد من الاستعانة بهذه الخطط وغباوة محمود للحمل محمد علي باشا

(١) المحفوظات الملكية المصرية بسرأي عابدين القسم التركي .

(٢) دون في كتابه حرب الشام الأولى طبعته الجمعية الجغرافية الملكية المصرية بالقاهرة

الجزء الثاني ص ٢٨٩ .

على كتابة خطاب ٢٤ أغسطس سنة ١٨٣٤ ، فإن رد إبراهيم لم تمله عليه مثل هذه الضرورة ، وقد جاء فى هذا الرد المؤرخ ٣ من سبتمبر سنة ١٨٣٤ :
 « كتبت إلى تقول إنه يجب علينا الآن أن نحطم أغلال الذل التى تطوق أعناقنا ، وإن الأجدد بنا أن نضع هذه الأغلال فى رقاب من فى الآستانة . فهل تسمحون لى أن أذكركم بأنى لما عرضت عليكم فى أثناء الحرب الأخيرة أن نصمم على إلقاء ذلك النير عن عاتقنا ، أجبتكم بأنكم لا تريدون إلا أن تكونوا محمداً علياً فحسب ؟ فإذا كنتم ترون الآن أن الموقف قد حان لتحطيم هذه الأغلال ، فاسمحوا لى أن أقول إنى لا أرى هذا الرأى ، لأن الإقدام عليه ليس الآن بالأمر الهين ، بل إننا سنلاقى فى سبيله صعاباً جمة ؛ وذلك لأن لدى الأتراك جنوداً لا يقلون عن جنودنا بأساً وشهامة ، وإذا تحرك أسطولهم لقتالنا ، وهاجموا به شواطئنا ، حاق بك من الضرر أكثر مما يحق بى » (١) .

نرى روح الاحترام تسرى فى هذه اللغة رغم وضوحها وصراحتها ؛ وقد نقلنا هذه الفقرة عن رسالة طويلة ، إذا قرأت أصلاًها التركى لم يبق لديك شيء من الشك فى وفاء إبراهيم وإخلاصه لأبيه . لكنه كان يناقشه فى مسألة سياسية قد تترتب عليها نتائج هامة ، وكان حبه العظيم لأبيه لا يسمح له بأن يترك فى آرائه شيئاً ولو قليلاً من الغموض . ولم نغتر على ما أجاب به محمد على ، وإن كان بين يدينا خطاب آخر من إبراهيم مؤرخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٣٤ ، نستطيع أن نعرف منه هذا الرد المفقود . لكننا سنقتصر على نقل بعض ما جاء فى هذا الخطاب . قال إبراهيم :

« كتبتم إلى تقولون إننى قد أخطأت فى فهم المقصود من خطابكم ، وإنكم

(١) القسم التركى من المحفوظات الملكية المصرية بسرارى عايدى .

قلتم إننا يجب علينا أن نحطم الأغلال التي تطوق أعناقنا ، ولكنكم لم تقولوا بعد ذلك إننا يجب أن نضع هذه الأغلال في رقاب الأتراك . لقد فهمت ما قلتموه حق الفهم . إنكم لم تقولوا إننا يجب أن نحاول وضع هذه الأغلال في رقاب الأتراك ، بل تقولت ذلك عليكم ، فهل تسمحون لي أن أخبركم عن السبب ؟ .

« يدعى رجال الدولة العثمانية أنها مركز الخلافة ؛ وحجتهم في ذلك أنها تمتلك المدينتين الإسلاميتين المقدستين مقر الحرمين الشريفين . والحقيقة أن مصر هي مالكة الحرمين ، لأنها هي التي تحكم الحجاز . فإذا أعلننا استقلالنا سقطت حجة الباب العالي ، إذ لا يستطيع الأئمة عندئذ أن يعلنوا من فوق المنابر أن السلطان هو خادم الحرمين الشريفين ؛ لأن الناس كلهم يعرفون أن مصر هي المسيطرة على الحجاز وعلى الأماكن المقدسة . وهذا هو ما أقصده بقولي إن الأغلال ستوضع في أعناق الأتراك » (١) .

وتبادل الوالد والولد الرسائل بعد ذلك الخطاب ؛ وظل إبراهيم مصرا على قوله إن الوقت لم يبق ملاماً لمهاجمة السلطان . وتدل خطاباته على أنه أصبح شديد الحيلة وأن بأسه الشديد قد تبدل بالدهاء الذي كان يبدو ظاهراً في طباع أبيه . فلما أصبح محمد علي يفضل المقاتلة على الخاتلة ، أضخى هو من دعاة اليقظة والحذر ، وخشى أن يستاء أبوه من تمسكه بآرائه التي أبداهها في خطابه فقال :

« وكل الذي يحملني على أن أعيد ذكر ما مضى على مسامعكم ، هو حرصى على أن لا نهرم أمراً إلا بعد أن نتبين أثره ، ونزن بعقولنا ما يترتب على أعمالنا من العواقب » (٢) .

(١) القسم التركي من المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين .

(٢) القسم التركي من المحفوظات الملكية المصرية بسراى عابدين .

وكان إبراهيم قد بلغ الخامسة والأربعين من عمره حينما تبدلت أخلاقه هذا التبدل الظاهر . ولا عجب فى ذلك فإن من أكبر ما امتاز به إبراهيم أن أفعه العقلى كان دائم الاتساع .

بدأ إبراهيم حياته دفترداراً لا يرحم ولا يابن ؛ فلما ولى أمر الشام جعل شعاره فى حكمه المساواة فى الضرائب . كذلك لما طبقت شهرته الخافقين بعد حرب الحجاز ، كان لا يعرف شيئاً من الخطط الحربية الحديثة ؛ فلما كبر عرف أن العالم لم تعد تصلح له تلك الخطط التى أنالته النصر على الوهابيين ، ولذلك شرع يدرس الفنون الحربية الأوربية ؛ ولم يدخر جهداً فى سبيل إتقانها ومعرفة كل صغيرة وكبيرة فيها . وهو الذى كان يشير بانتهاج منهج الحزم والشدّة فى معاملة الأتراك ، واستمسك جهده بهذه الخطة التى كان يدعو إليها ؛ لـكنه الآن قد أوتى من الشجاعة الأدبية ما جعله يرى أن الظروف قد تبدلت ، فأصبح فرضاً عليه أن يبدل تبعاً لها موقفه ، سواء كان مخطئاً أو مصيباً فيما كان يراه أيام كوثاهية . لقد قلنا إن بطانة محمد على كانت لا تفتأ تذكر له كرمه فى معاملة عدوه المنهزم ؛ ولـكنه لم يستبدل بموقفه الأول ، موقف السياسى الحذر ، موقفه الجديد أى موقف القائد الشديد البطش ، لهذا السبب وحده ؛ بل كان للسياسة الأوربية يد فى ذلك . إن هذه السياسة فى جميع أدوارها دخائلاً وخفاياها . لقد كان اللورد بالمرستون Palmerstone ينظر إلى محمد على فيرى فيه الحاكم المحتل لطريق الهند^(١) ؛ فكان لذلك يبعضه من صميم قلبه . وهذا السبب عينه وهو كراهية وزير الخارجية البريطانية لحمد على ، هو الذى بعث فى قلب الملك الشعبى لوى فليب العطف عليه ، وإن كان هو الذى اخترع لفظ « الاتفاق

(١) بالمرستون تأليف فليب جودلا طبعة إرنست بن بلندن ص ١٧٥ .

الودى » ليصف به الصداقة التى توثقت عراها بعد ذلك بقبائل بين باريس واندن ؛ ولما كانت العداوة مستحكمة ^(١) بين قيصر روسيا وإمبراطور النمسا ، فإن معاونة نقولا إلى السلطان جعلت مترنيخ يلاطف محمداً علياً .

ولم يسلك لوى فيليب ومترنيخ مسلكاً واحداً فى مصانعة محمد على والثناء عليه ، فقد وكل مترنيخ الأمر إلى الكونت بروكش أوستن Count Prokesch Osten وأفهمه أن يضرب على نعمة الإمبراطورية العربية الحجيذة . وأما ملك فرنسا فقد أفهم ميمو أن يستهوى محمداً علياً بالضرب على نعمة الاستقلال الساحرة . وقد لا يكون فى عمله هذا شئ من عدم الإخلاص ، وذلك لأن الاحتفاظ بكيان الدولة العثمانية لم يكن من المبادئ الأساسية لسياسة فرنسا الخارجية . والدليل على ذلك أن حكومة آل بوربون هاجمت الجزائر ، وأن حكومة لوى فيليب كانت تحبذ تقسيم الدولة العثمانية ، وأن فرنسا أمدت محمداً علياً بما يلزم لجيشه وأسطوله من الجند والبحارة ، وأن الخبراء الذين كانوا يشرفون على الأعمال فى أحواض السفن ومصانعها بالإسكندرية كانوا من الفرنسيين . وكان من رأى باريس أن استقلال مصر قد أصبح حقيقة واقعة لا ينقصه إلا الاعتراف به اعترافاً قانونياً ، لكى يسمى أمراً غير قابل للنزاع . ولذلك وجهت جميع جهودها لإقناع السلطان بالموافقة على هذا الرأى . وقد وصف ميمو سياسته بقوله : « إن الواجب الملقى على عاتق فرنسا هو أن تضم نصفى الدولة أحدهما إلى الآخر » .

وفى خلال هذه الشهور التى كان فيها محمد على يهتدى إلى أنواع جديدة من النشاط العقلى ، كان إبراهيم ينظم حكومة الشام المدنية ، ويستعد لمقاتلة تركيا . وتحقيقاً لهذه الأغراض نقل مقر القيادة العامة إلى انطاكية . ولما اختار إبراهيم

(١) فى الأصل الإنجليزى « الصداقة متينة » وهو ما لا يؤيده الواقع ولا يحتمله المعنى ، وهو إمامتهم أو سهو من المؤلف . (العرب)

مقر كرمى القديس بطرس ليكون قاعدة لأعماله العسكرية ، كانت هذه المدينة محاطة بأسوار عظيمة الأهمية ؛ وكانت قلعتهما جزءاً من الصخر الأصم ، أسوارها تشهد للمهندسين القدماء بالبراعة والإتقان . ولكن هذه الكنوز الأثرية لم يكن لها معنى لديه لأن جنوده كانوا فى حاجة إلى ثكنات يأوون إليها ، فإذا شاء أن يستورد ما يحتاجه من مواد البناء لإقامتها كلفه ذلك أموالاً طائلة ؛ فاتخذ الأسوار القديمة مقالع لأحجار البناء .

ومرت الشهور يتلو بعضها بعضاً من غير أن يتصادم الأتراك والمصريون . وأتى على الاثنين حين من الزمان بدا فيه أن الحافر الأمامية للقوتين ان يقع بينهما قتال . فلما كان اليوم الثالث والعشرون من شهر إبريل سنة ١٨٣٩ ، وقع ما كان لا بد من وقوعه ، إذ تخطى القائد العثماني العام ومعه أركان حربه البروسيون الحدود الفاصلة بين البلدين ، واقترب من إحدى الفرق المصرية . وكان مع الفصيطة التركية هلموث فون ملتسكه Helmuth Von Moltke ، الذى خلّد ذكره فى موقعة سيدان Sedan . ولم يخف على إبراهيم ما كان يقصده الأتراك بهذا التحدى ؛ ولكنه جعل السياسة العليا تسيطر على خطته العسكرية ، لأنه كان يعرف أنه إذا استفزه هذا التحدى تطاير شرر الحرب مرة أخرى . وكان يرى أن هذه الخطوة الخطيرة لا يصح أن يخطوها هو ، بل يجب أن يترك أمر تقريرها لأبيه . ولذلك أرسل من فوره الرسل إلى الباشا ليخبروه بما وقع ؛ ولكنه لم يقف مكتوف الأيدي حتى يرجع هؤلاء الرسل ، بل أمر قواد فيالقه أن يستعدوا للقتال فى الحال ؛ ثم استقدم إليه أعيان البلاد المجاورة وأطلعهم على ما حدث ، وأخبرهم أنه فى حاجة إلى معاونتهم الودية .

ولما وصل رسل إبراهيم إلى محمد على أمر ناظر حريته أحمد باشا أن يسافر على

الفور إلى ميدان القتال . فلما بلغ هذا النبأ مسامع القنصل الفرنسى احتج عليه ، وقال إن اتصال ناظر الحربية بإبراهيم لا بد أن يؤدي إلى نشوب القتال ، فلم يعبأ الباشا بهذا الاحتجاج ، بل أعاره أذنًا صماء . وعندئذ واصل القنصل الفرنسى هجومه فقال : « ستحملون سموكم تبعاً للحرب إذا سمحتم لأحمد باشا بأن يتصل بإبراهيم ، وإني أؤكد لكم أن السلطان يرغب في السلم وأن فرنسا أيضاً راعية فيه » . فرد عليه محمد على من فوره بقوله : « إذا ضمنتم لى عدم تقدم الأتراك فإننى لا أكتفى بإبقاء أحمد باشا بالقاهرة ، بل سأستدعى فى الحال إبراهيم وجيشه » فانشرح صدر القنصل لما سمع هذا القول ، وأبرز لساعته رسالة من روسن السفير الطائش يقول فيها إن السلطان أكد له أن الباب العالى يفتح للسلم . وختم السياسى البحار خطابه بقوله : « لقد قالت فرنسا كلمتها ، واتبعت نصيحتهما ، فأذع رسالتى فى طول البلاد وعرضها » .

وكان لمحمد على ذاكرة قوية وبديهة حاضرة ؛ ولم يكن أمر روسن خافياً عليه ، ولم يشك قط فى صدق القنصل ولا فى إخلاص السفير الذى تلقى تجاربه الأولى على ظهر سفينة . وكل ما فعله أن التفت إلى قنصل النمسا الذى كان حاضراً هذا الحديث وقال له : « هل فى خطاباتك أنت أيضاً مثل هذه الضمانات السلمية ؟ وهل تستطيع أنت أيضاً أن تؤكد لى ما أكدته زميلك ؟ » فكان الجواب سلباً . وعندئذ لم يتردد محمد على فى الرد بل قال : « سيدى إننى أعرف ما يجرى الآن فى الآستانة ؛ وإن أبسط مبادئ الحزم لتدفعنى إلى العمل دفعاً ؛ ولا بد من أن أمر أحمد باشا بالسفر فى الوقت والساعة » وصدرت هذه الأوامر قبل أن يقوم محمد على من مقامه ^(١) .

(١) سليمان باشا تأليف إيميه فنتزنيه طبع فى من — ديدو بياريس سنة ١٨٦٦ ص ٢٩٦ .